مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 11 عدد: 4 السنة: 2022
ص: 248 - 260 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

النقد الحداثي وسؤال المفهومية: قراءة في البراديغم النقدي المعاصر

Modern criticism and the conceptual question: Reading in critical contemporary paradigm

فتحي منصورية *

Fathi mansouria

مخبر المتخيل الشفوي وحضارات المشافهة والكتابة والصورة– جامعة باتنة

جامعة العربي التبسي – تبسة (الجزائر)

University of Laarbi Tebeesi –tebessa /Algeria

fathi.mansouria@univ-batna.dz

Fathi.mansouria@univ-tebessa.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/02	تاريخ القبول: 2022/09/19	تاريخ النشر: 2022/12/02

ملخص البحث

يتناول هذا البحث ضمن إطار النظرية النقدية المعاصرة قضية مهمة تتمثل بالأساس في التحولات الكبرى التي شهدتها هذه النظرية ؛ من الحداثة إلى ما بعد الحداثة ، ومن البنيوية إلى ما بعدها، حيث أمكننا ن نشاهد بوضوح تلك النماذج النقدية الجديدة التي أفرزها هذا التحول، وهي نماذج اختصت بتحليل الثقافة أكثر من تفسير النصوص تفسيرا مباشرا.

الكلمات المفتاح : التأويل ، الثقافة ، الحداثة ، ما بعد الحداثة ، البراديغم ، النقد الحداثي .

Abstract:

This papers research deals with a contemporary critical theory, it's an important issue is mainly in the thorough transformations witnessed by this theory, from modernity to postmodernism, and from structuralism to post-structural, where we can see clearly those new critical models which transformation has brought about, they are critical models designed to analyze the culture more than interpreting the texts directly.

* فتحي منصورية، fathi.mansouria@univ-tebessa.dz

Keywords: interpretation, culture, modernity, postmodernity, paradigm, modern critic. .

مقدمة:

يقتضي البحث في مجمل الإشكالات المتعلقة بسؤال المفهومية النقدية الانتقال إلى تشغيل مفهوم البراديغم؛ هذا المفهوم يسعفنا في التخلص من الإرث الباثولوجي لميتافيزيقا المنهج الذي تسقط في فخه الكثير من الدراسات، حيث يتصاعد السؤال هاهنا حول علاقة الميتانقدي كإجراء ما وراء معرفي يحاور النصوص والخطابات، بسؤال التأويل كاستراتيجية حرة في فتح مغاليق الخطاب وجعله إمكانا داخل العالم بما هو تكثيف سيميائي/ ثقافي للمرموز. هذه المعاينة ممكنة الحدوث عبر معالجة معرفية حوارية تحتفي إبستيمولوجيا بالنقدي كفعالية لإخصاب النص/ العالم، وتحمل الخطاب على الإفصاح باللامقول أو المسكون داخل طبقات الغياب فيه. وإذا كان خطاب الحداثة النقدية ينطوي على مقولات معرفية مركبة، فإن البرنامج الفاحص المقترح هاهنا يأخذ في الحسبان المرجعيات التي تتحكم في صياغة هذا النموذج، ومجمل الممارسات المعرفية لهذا الخطاب والمتدرجة عبر التاريخ على شكل فهوم بنائية/تأويلية، وكذا مختلف القراءات التحليلية التي يقدمها هذا النموذج للآخر الشريك في المعرفة.

يمكن من خلال هذه المصفوفة، تقديم توصيف إبستيمولوجي لمناطق التحول في النظرية النقدية المعاصرة، ومحاولة تحليل التعرجات/الانكسارات الحاصلة في صلب النموذج النقدي الحداثي وما بعد الحداثي، والوقوف على إمكانية بناء تحليل إبستيمي مفهومي لهذه الوضعية الجديدة.

أولا / البراديغم: من المعرفي إلى النقدي /

من الضروري أن نعترف – في البدء- بأن هناك عسرا حقيقيا في محاولة القبض على مفهومات المعرفة الإنسانية المعاصرة ، لاسيما النقدية منها ، وهذا راجع بالأساس إلى البنية المعقدة / المركبة لهذه المفهومات، وتعالقها أثناء تكونها مع مشروطيات أخرى تقع خارج البنيات الأصلية لها، وربما قد يدفعنا الأمر إلى التساؤل عن طبيعة الأرض التي تقف عليها هذه

الترسانة، بوصفها أرض المولد / النشأة والتي تبقى مشتتة في المحمول المعرفي لهذه المفهومات حيثما وجدت ، وأينما ارتحلت.

يحدث – إذن – أن تتدافع المعرفة إلى بناء تصوراتها وتنظيم أشكالها، وتحديد حراكها ومسارها البنيوي / التاريخي ضمن بنيات مركبة وجاهزة لعمليات التحليل والبنينة والمفهمة ، وهذا في كل مرة تتعرض فيها إلى هزات أنطولوجية مباغتة جراء الصراع / الحوار المحتدم بين الأفكار / النظريات / المناهج، وإن كنا نعتقد أن الهزات التي تحصل في نطاقات مخصوصة من هذه النظرية أو تلك إنما ترج أرض / بيان المعرفة في عمقها لتتحرك ضمن رجاتها تلك الطبقات المدفونة في عمق المعنى / التاريخ / الثقافة؛ إنها طبقات بقيت عبر حقب زمنية طويلة متتالية وبفعل تحيزات مغلوطة قابعة داخل المنسي / المقصى/ المهمش من الإنساني ؛ فظلت بشكل ما ترزح تحت تأثير الاستهام الذي ظلت تمارسه ألعاب الحقيقة بتعبير فوكو" Foucault " ، حيث إن اللعبة " مجموعة من قواعد إنتاج الحقيقة. إنها ليست لعبة بمعنى التقليد أو الهزل ... بالعكس إنها مجموعة من الإجراءات التي تؤدي إلى نتيجة معينة ، والتي يمكن اعتبارها ، في ارتباطها مع هذه المبادئ وتلك القواعد ، مقبولة أو العكس ، رابحة أو خاسرة " [1] ، لذلك، لا يمكن للحقيقة أن تظهر بشكل موضوعي صلب، بل تتخارج وفق تحيينات طارئة تخرج المعنى من غيبوبته، وتدفع به في حراك إبستمولوجي/ نقدي فعال.

إن **الحقيقة** مفهوم زئبقي لا يمكن القبض عليه دفعة واحدة، إنما هو مشتت بالشكل الذي يجعله مفهوما تأويليا بامتياز، بمعنى أن صلابة هذا المفهوم تكمن في قدرته على التحايل؛ التحايل على ذاته من جهة، وعلى الشرط العقلاني للمعرفة بوصفها صورا ومدركات لأشياء يتم استيضاحها واستجلابها من منطقة الغموض من جهة ثانية، وهذا الاشتغال مرده بالأساس هو ارتباط هذا المفهوم بالشرط الإنساني وأبعاده المتباينة، إنه الشرط الذي يقاوم الخطاب بلاشك ، ويحرر المعنى من استيلاب المركز / السلطة / الثقافة ، إنه يتوجب علينا دائما حسب ميشال فوكو " معرفة أن الجنون ، تحت مختلف التحديات التي أعطيت له ، في لحظة معينة ، أمكنه أن يكون مدمجا داخل حقل مؤسساتي ، هو الذي عمل على تكوينه كمرض عقلي لم مكانة معينة إلى جوار باقي الأمراض" [2] ، هذا بلاشك، ما يدعو إلى تحريك المركز من

الداخل وحمله على تفكيك برنامجه التوجيهي، لإعادة استثارة المسكوت عنه داخل أمراض الثقافة بوصفها أمراض تتعلق بأساليب الهيمنة /الإخضاع / الإقصاء.

إن سؤال الأركيولوجيا بما هو سؤال نيتشوي في مسعاه وغاياته، يسعى إلى تطريق المعرفة للوصول إلى البنيات الأصلية التي صنعت النسق المتعالي لها، وجعلته نسقا إيديولوجيا لا يقبل التشتيت، لذلك، يمكن تطريق هذا النسق بالأركيولوجيا وجعله قادرا على تحرير الحقيقة من الملابسات التاريخية التي استحوذت على الفهم بشكل نمطي/ تسطيحي / أفقي، وليس للأركيولوجيا غاية إلا مواصلة الحفر/ التنقيب داخل خطابات المركز النسقي المهيمن، غير أنها لا تؤسس للمركز أثناء كل محاولة حفر، بل هي تسعى جاهدة إلى مواصلة نقض المركز وطبقاته **التكتونية** وتفتيتها، للوصول إلى ما وراء الأصل أو الميتا- أصل الذي يبقى محفورا في عمق الثقافة؛ هناك بعيدا في أرض الغياب داخل متاهات النص/ العالم.

يسعفنا هذا السؤال في معاينة الملامح الجديدة التي اتخذتها المقاربات النقدية المعاصرةّ، وهي مقاربات تيمنت بالنموذج العلمي في محاولة قبضها على الحقيقة الأدبية، ويمكن اعتبار ملاحظات بروب Propp في مرفولوجيا القصة الشعبية التتويج الكبير لهذا التوجه، غير أن ما يؤخذ على عمل الشكلانيين الروس عامة هو استبعادهم لروح الأدب لصالح التمظهر اللغوي السطحي للنصوص، لكن قبل ذلك، ولفهم أدبيات هذا التحول فهما دقيقا ، نقترح معالجته ضمن مفهوم **البراديغم** le paradigm، وهو مفهوم ظهرت مضانه الأولى ضمن نطاق العلوم التجريبية، أي تلك العلوم الخاضعة للمنطق العلمي في الفرضية والملاحظة والتجريب، وقد تعلق أساسا بمجموع التصورات العلمية التي يجمع بينها رابط إشكالي ومعرفي واحد ، ثم انتقل هذا المفهوم إلى ميدان العلوم الإنسانية مع توماس كون Thomas Kuhn والذي قدمه في صورة " قاسم مشترك بين أعضاء جماعة علمية " [3] ، وهذا القاسم المشترك إنما هو مجموعة المزايا البحثية والتصورات العلمية التي تشترك في برنامج واحد، وتقدم رؤية منهجية متكاملة تشترك في بنية واحدة هي " بنية مجتمع العلم " [4]، خاضعة للتحول بما يتلاءم والتحولات الكبرى التي تحدث في نظرية ما حين تعجز عن تقديم تفسيرات موضوعية وعقلانية لظاهرة من الظواهر الإنسانية ، فتتأزم مضامينها وأدواتها، وتعلن عن تحولها إلى برنامج جديد فتنبثق من خلالها نظرية جديدة .

وفق هذا الطرح، يمكن أن نتحدث عن انتقال براديغمي للمعرفة من تشكلاتها الإبستيمية إلى تمثلاتها النقدية، حيث يمكن اعتبار أطروحات النظرية النقدية المعاصرة ضمن براديغم نقدي انتقل من اعتبار النص الأدبي انعكاسا لأوضاع تاريخية أو سوسيوثقافية معينة، إلى وصفه كبنية لغوية / نسقية لا تحيل إلا على معجمها الداخلي، وهو انتقال خطير استبعد أثناء دراسة النصوص كل المؤثرات التي تقع خارج الرقعة النصية من جانب تاريخي واجتماعي، وقرر معالجة الوضعية النصية انطلاقا من تمظهر النص على شكل مستويات صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية، مؤثرا البنية الشكلية / اللغوية للنص على حساب بنيته المضمونية .

إن هذا التحول الذي أصاب النظرية النقدية المعاصرة حدث اعتبارا لتحول خطير أصاب الفكر الغربي المعاصر، وآذن بميلاد أنظمة **الحداثة** على كل مستوياتها الإبستيمية، ولابد من الإشارة إلى البيان التأسيسي / المانفستو الأول الذي قذف بالتفكير الحداثي إلى مسرح المعقولية، ألا وهو بيان فلسفة الأنوار التي استحوذت على المعرفة من النموذج الديني وفق إصلاحات موور Moor لنظام الكنيسة، ودفعت بها ضمن إطار تشكلات العقل كنظام جديد يسعى إلى إنتاج الوعي واستيعاب الأشكال التي تتحوطه استيعابا تاما، وقد أعادت هذه الفلسفة الاعتبار للإنساني، وتساءلت عن الدور السلبي للميتافيزيقا في سلبها لهذا الشرط واستئثارها السلطوي / المؤسساتي بالمعرفة وآليات إنتاجها وتسويقها، فعمدت إلى بناء النسق العقلاني كآلية كوجيطو – نقدية لأجل تحرير الشرط الإنساني من التعمية الميتافيزيقية لنظام الموجودات على مسرح الطبيعة والكون .

إن آليات اشتغال العقل اللغوي الذي أفرزته لسانيات سوسير Saussure هي الوضعية الأولى للبراديغم النقدي الحداثي على مستوى النظرية النقدية المعاصرة، يتجلى هذا في مفهوم النسق الذي طوره " ياكوبسون Jacobson" في إطار حديثه عن وظائف اللغة، حيث انطلق في نظريته اللغوية بالأساس من التركيبة الداخلية للنص بوصفه جهاز منتظم من الملفوظات اللغوية التي ترتبط ببعضها البعض وفق مقولة العلاقة، وقد وصل هذا النمط من التفكير إلى آخر صوره وتجلياته مع **البنيوية** خاصة في طورها الفرنسي، وهي لحظة اكتمال البراديغم من حيث النمذجة. ويمكن من خلال هذا التوصيف القول إن ارتحال البراديغم من نظرية المعرفة عامة إلى حقول النظرية النقدية قد كان وفق مشروطيات معرفية تكوثرت على

مستوى العقل الغربي تأسيسا على إشكالاته الفلسفية والمعرفية التي تعد الرافد الأول لهذه المناهج والنظريات داخل الدرس النقدي المعاصر، ومشروطياته المختلفة.

ثانيا / ما بعد الحداثة والتأويل: من القراءة الواحدية إلى تعددية القراءة:

لا يعزب عن الدارس في مجال النقد المعاصر وإشكالاته، أن النظريات النقدية وحين تصل إلى مستوى عالي من الاشتغال المفهومي، فإنها تعود أدراجها إلى نقطة الانطلاق بفعل تأزم النموذج داخلها؛ إنها عودة نكوصية نحو الهامش / المنسي الذي تغافلت عنه أو تناسته في منطقة ما من مناطق تعرج النظرية، ثم إن المعرفة في نظرنا تتأسس وفق نمطين من البناء؛ تراكمي وقطائعي. أما الأول فهو يسلب الفرادة والإبداع لصالح نموذج قبلي / متعالي يظل يكرر الأسئلة نفسها، والثاني فهو نقدي / ثوري يطرد الأنساق المتمركزة حول ذاتها ويعيد تأسيس أخرى وفق منطق حواري/ تفاعلي، فهو نمط ينتمي إلى منطقة "الما بعد" زمنيا ومعرفيا في الوقت نفسه، ولا نعتقد أن البناء الصحيح للمعرفة يكون خارج هذا الإطار، لأن البنيات المركوزة في عمق النموذج المأزوم إنما تنتظر دورها في التحول والبنينة الداخلية لتفصح عن كمونها المعرفي الذي تحتويه ، والذي لم تسعف قراءة سابقة في كشفه / تعريته، وهكذا تتدفق المعرفة الجديدة من بطن هذا النموذج على النحو الذي يجعلها تباشر أسئلتها الوجودية بشكل سليم.

إن ما بعد الحداثة وفق تصورنا السابق، هي تشكل جديد للعقل الغربي ضمن أنساقه التي ينطوي عليها / ينتجها داخل أنظمته الإبستيمية، حيث نجد على سبيل المثال المفكر المغربي محمد سبيلا لا يضع فرقا واضحا بين ما بعد الحداثة أو الحداثة البعدية، حيث يعتقد أنها " ليست إلا الحداثة في مرحلتها الثانية أو اللاحقة، أي الحداثة وقد وسعت مكتسباتها ورسختها ، وسعت مفهومها للعقل ليشمل اللاعقل، ووسعت مفهومها عن القدرات الإنسانية لتشمل المتخيل ، والوهم، والعقيدة والأسطورة، وهي الملكات التي كانت الحداثة الظافرة، المزهوة بذاتها وبعقلانيتها الصارمة، قد استبعدتها باعتبارها " مجنونة المسكن " كما قال ديكارت عن الخيال " [5] . وعليه، فإن ما بعد الحداثة حركة داخل النموذج الحداثي أعادت الاعتبار للعوالم الرمزية للإنسان، وهي عوالم لم تحظ بالاهتمام من طرف منظومة العقل الحداثي باعتبارها تحيل على بنية ميتافيزيقية سابقة على الوجود الإنساني، لذلك ، فالعلاقة بين الحداثة وما بعدها هي علاقة من التداخل بحيث لا يمكن الفصل بينهما فصلا واضحا، هذا

لأن ما بعد الحداثة قامت بدور تطعيمي للحداثة وتصحيح لمسارها المعرفي المتأزم، فهما لحظتان تنتميان لنموذج واحد، وتستغرقهما لحظة تعقل واحدة، والحداثة في لحظة تاريخية ما استغرقت وجودها المعرفي / الزمني إلى أن وصلت إلى لحظة التوتر الكبرى التي شككت في مقولاتها التأسيسية وأعادت رسم الخارطة الجينالوجية لها، فـ" الحداثة في عمقها توتر، وتنطع ، وتنكر وتجاوز مستمر لذاتها أولا ، ولتوازناتها الداخلية ثانيا نحو توازنات جديدة أكثر توترا. وهذا التوتر لا يخلو من مؤشرات اتجاهية. إنه توتر مستمر من سلطة التقليد إلى سلطة العقل والنقد ، ومن الأسطورة إلى العقل ومن الحدس إلى الاستدلال العقلي والبرهان التجريبي ، ومن الجوانية إلى الموضوعانية (سنة إلى الموضوع الخارجي) ، ومن الأصالة إلى التقدم ، ومن العرف الشعبي إلى القانون ، ومن سلطة التفويض إلى سلطة التمثيل ومن الغائية إلى الآلية " [6] ، وهذه المؤشرات الداخلية التي تنطوي عليها الحداثة هي التي مكنتها من تجاوز أزمتها، والقدرة على التحول والارتجاع الداخلي. إن حركة ما بعد الحداثة لم تأت من الخارج، إنما تخارجت من بنية النموذج الحداثي نفسه، حاملة صور الحداثة ووجهها المشوه، بل هي بذرتها المتحولة والتي نمت بداخلها وهاجرت معها، واستوطنت مقولاتها كخطاب موازي، ومقولات مصاحبة تعيش داخل منطقة البينيات، أي بين الحداثة وأنساقها؛ بينها وبين موضوعاتها.

يجب أن نعترف بشكل ما أن ما بعد الحداثة قد خلصت العقل الغربي من نسقيته المغلقة، ومن استدارته حول مفهوم العقل؛ لقد فككت مقولات هذا التيار مفهوم التمركز حول العقل، بحيث لا مركز ينتظم الأشياء، ولا قاعدة موضوعية تعضد أنساقه، إنها حركة أسست للتجاوز /الخرق / الانتهاك المتواصل للمركز، وهي بذلك ، فقد انتصرت للصيرورة، والانزلاق، والتشتت، ولانهائية الدلالة، بل لقد أدخلت الإنسان إلى منطقة العماء/ الكاوس التي لا يرى من خلالها سوى أشباح لا شكل منتظم لها، ولا نسق موضوعي يحتويها، هذه هي ما بعد الحداثة؛ فلا تعريف شامل يضبطها، ولا مفهوم واضح يقعد لها، فهي ليست إلا استراتيجيات لعب حر مع الدوال، وانتقال هاجسي و تدميري من نسق إلى آخر، ومن بنية إلى أخرى تفكيكا وارتحالا.

هذا التحول الخطير الذي مس البراديغم المعاصر قد انتقل إلى نظريات النقد كذلك، فبعد أن تمادت البنيوية — وهي العنوان العريض للبرنامج النقدي الحداثي– في اختزال الإنسان

إلى نسق ميكانيكي من العلاقات اللغوية، أعادت استراتيجيات ما بعد البنيوية المختلفة تحرير هذا الإنسان من جديد، عبر تجاوز فكرة التفسير الحرفي للنص، إلى تأويل الدلالات الثقافية التي تحملها، بمعنى أن النص في المرحلة البنيوية لم يكن يحتمل أكثر من قراءة واحدة وواحدية، وهذا نزولا عند مشروطية المنهج؛ فالبنيوية منهج نقدي لا يقبل بتعدد القراءات، بل يقف عند حدود الدلالات الحرفية للغة عبر مستويات عدة، وهذا الاشتغال أعطى لها فرصة سانحة للتفرد بالنص بعيدا عن سياقاته التاريخية والسوسيوثقافية التي أنتج في ظلها، غير أن ما بعد البنيوية قد أعادت ربط الواقع اللغوي للنص بالأشكال الأخرى التي تقع خارج حدود الرقعة النصية، وهي أشكال تنتمي إلى التاريخ والمتخيل، وإلى البنيات الاجتماعية، والأنظمة السيميائية التي تحتمل أكثر من قراءة، وإلى الشفرات الثقافية المتعددة التي تحيل عليها الواقعة اللغوية، ولقد انتبه اللغوي المعاصر "ادوارد سابير Edward Sapir" إلى هذه الإشكالية، فاكتشف أن " اللغة طريقة إنسانية خالصة وغير غريزية لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات بوساطة نسق من الرموز المولدة توليدا إراديا "[7]، بمعنى أن اللغة لم تعد مجرد أصوات لا إرادية وغريزية، بل إنها شفرات حاملة لدلالات ثقافية ذات طابع إنساني، بمعنى أنها تستعمل لغايات إنسانية مقصودة، فهي تشع بهذا المحمول الذي يبتعد بها عن شكلها الغرائزي الأول، ويدخل بها في عالم الثقافة الذي ينطوي على أشكال ذات أبعاد تأويلية محضة؛ نقول تأويلية لأنها تختص بالجانب المخفي من عوالم هذا الإنسان، وإذ هي كذلك حسب سابير " فليس بوسعنا سوى أن نرضى بأن تكون اللغة نظاما وظيفيا تام التكوين في التركيب النفسي أو الروحي للإنسان ، ونحن لانستطيع تعريفها بوصفها كيانا بالمعنى الطبيعي – النفسي فقط ، مهما كان الأساس الطبيعي – النفسي مهما في عملها في داخل الفرد " [8]، وعليه، فقد تغافل الطرح البنيوي عن هذه الأشكال المتخفية للغة ، وعن أبعادها الرمزية / التأويلية، لأن مسار اشتغاله كان بالأساس متعلقا بوصف البنية الصورية / الموضوعية للنص، دون الالتفات إلى ما يحتويه هذا النص من فراغات / فجوات تحيل على تعددية الدلالة أو لا نهائيتها في الكثير من الأحيان، وهذا في الحقيقة ما سعت استراتيجيات ما بعد الحداثة / ما بعد البنيوية إلى البحث عنه داخل الصيرورة التأويلية للنصوص، إنها حسب محمد بكاي " تحاول أن تسائل كل ما هو عقلاني حول اللغة والتواصل وتطعن في إمكانية تحديد واضح وبسيط للفهم، لتفتح على التأويل والاحتمال" [9]، بمعنى أن

هـذه الأدوات والمعـاول الجديـدة حاولـت رد الاعتبـار بشـكل ملحـوظ لمـا يقـع بعـد / خـارج النسـق المغلـق للـنص مشـترطة الـتخلص جـذريا مـن فكـرة المنهاجويـة أو لحظـة تقـديس المـنهج، لأنهـا لحظـة ترنســندنتالية / متعاليــة تجعــل الــنص خاضــعا لقــوانين المــنهج الصــارمة، ثم البحــث في داخــل النصـوص عمـا يمكـن أن نعثـر عليـه مـن علامـات ثقافيـة تتجـاوز الجمـالي إلى الثقـافي المخبـوء تحتـه بشكل أو بآخر.

إن مـا بعـد الحداثـة تأويليـة بامتيـاز، هـذا لأنهـا تجـاوزت البنيـة العقليـة والصـارمة للغـة إلى مكوناتهـا الرمزيـة الـتي تشـع بهـا، بـل تسـعى إلى توليـد مايسـميه بكـاي بـ" الكثافـة المفهوميـة" [10] ، و إن مـا يقـع تحـت الجمـالي بشـكل أو بـآخر هـو التوصـيف الثقـافي للعلامـات السـيميائية الـتي تم تـداولها بلاغيـا في إطـار سـياق مخصـوص، وهـذا مـا أدى بجـل اسـتراتيجياتها- أي مـا بعـد الحداثـة – إلى التركيـز علـى مفـاهيم جديـدة مـن مثـل : النسـق المفتـوح ، القـارئ (بكـل أشـكاله)، الاخـتلاف، التأويــل، القــراءة الثقافيــة، النســق المضــمر ...إلخ، والتوجــه إلى تأويــل الثقافــة الــتي تشــع بهــا المحمولات النصية على تباين مادة إبداعها.

ثالثا/ مفهومية النقد المعاصر: أو في تأويل ما وراء المعرفة :

لا نجـد بـدا مـن الاعـتراف أن النقـد المعاصـر في مرحلـة مـا بعـد الحداثـة قـد انتقـل مـن دراسـة النصـوص إلى تأويـل الخطابـات، بـل لقـد صـار اشـتغالا دؤوبـا حـول الخطابـات النقديـة في حـد ذاتهـا، ويمكـن ملاحظـة هـذا المسـتجد مـن خـلال طبيعـة الآليـات والمعـاول الإجرائيـة المخصوصـة بهـذه المرحلـة؛ فالتفكيكيـة تفجـر الخطـاب مـن الـداخل دون أن تتـدخل بشـكل مباشـر في هـذه العمليـة، فهـي تحملـه علـى فضـح نفسـه مـن تلقـاء نفسـه، وأمـا الأركيولوجيـا الفوكويـة فهـي تعمـل علـى فضـح تناقضـات الخطـاب وكشـف علاقـات السـلطة الـتي يمارسـها المركـز علـى الهـامش. أمـا التأويليـة فتعمـل علـى تكثيـف الـدلالات بـدل الاكتفـاء بـالقراءة الواحديـة الـتي يسـوقها النمـوذج اللغـوي الصـارم. كـل هـذه البـدائل المعرفيـة تشـتغل ضـمن إبسـتيمولوجيا جديـدة تخلصـت مـن فكـرة النمـوذج العقلـي / اللغـوي الصـلب وانفتحـت علـى مسـافة تأويليـة تسـمح بتحليـل المكـون المعـرفي لهذه المناهج والاستراتيجيات ما يسمح دائما بنقدها ومراجعتها متى اقتضت الضرورة.

لعلنـا نتفـق مـع الناقـد المغـربي محمـد مفتـاح حـين يقـرر أن" المفـاهيم محتاجـة إلى نسـق يضـم بعضـها إلى بعـض لـربط صـلات وعلائـق بـين أشـاث الكـون حـتى يتحقـق نـوع مـن الانسـجام

والاتساق بين الأثاث بعضه ببعض وبينه وبين الإنسان " [11] ، فالمفاهيم تولد بجانب بعضها ما يجعلها تتشارك الكثير من الخصائص ، رغم اعترافنا بأن لكل مفهوم إطاره الإبستيمولوجي الذي يتحرك من خلاله، لكن هذا الإطار في نظرنا يجب أن يتخلص من صرامة حدوده، بل لابد أن ينفتح على مفهومية تأويلية تخرجه من التداول المغلق فـ " المفاهيم مكتسبات تاريخية وعلمية وايديولوجية للمجتمع، وهي تمتلك بعدا معرفيا فيضيا" [12]، وهذا البعد الفيضي هو الذي نقصده هاهنا، فهي يمكن أن تكون انعكاسا موضوعيا لبنية ما، ولكن تتجاوز هذا الانعكاس المباشر إلى تأويل هذه البنية تاريخيا.

من شرفة ما تقدم، تخضع المفاهيم النقدية إلى هذه المعالجة الإبستيمولوجية الجديدة ؛ من المغلق إلى المفتوح، ومن التخصصي إلى ما بعد التخصص، وإذا اتفقنا بأن النقد في مرحلة ما بعد الحداثة / ما بعد البنيوية قد انتقل من وصف النص إلى تأويل الثقافة/ الخطاب، فكذلك المفاهيم النقدية انتقلت بدورها من كونها مجرد بينات لوصف الظواهر إلى نماذج في قراءة هذه الظواهر، فهي بلاشك " تستند على ماض محدد، تتوجه نحو حاضر قائم، وتسعى الى مستقبل منشود أو مفترض " [13]، وإذا كانت تسعى إلى مستقبل منشود فهي لا ترضى أن تبقى قابعة خلف المقولات النقدية دون مناوشة مفهومية لها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فهي تسعى جاهدة إلى التخلص من فكرة الولاء لمنهج مخصوص، فهي تشتغل خارج المنهج أصلا، ومادام المنهج معرفة، فهي كذلك معرفة، بل تتجاوز المنهج في قدرتها على الوصول إلى نماذج تقع خارج المنهج، فهي ذات مرونة عالية، ونمط متحول، وقدرة تأويلية خارقة ليس للمنهج فيها قدرة على قبضها أو تخطيطها داخل أنظومة فكرية أو إيديولوجية. فصحيح أن لكل نسق معرفي مفاهيمه المخصوصة به، إلا أن المفاهيم الناجزة القوية في نظرنا هي تلك التي تمتلك قدرة على خرق / تجاوز نموذجها المعرفي ولا تبقى أسيرة هذا النظام، بل تسعى دوما إلى ابتكار الشخصية المفهومية التي تنتقل بها من مناطق العتمة والجمود إلى مناطق الانفتاح والتداول، لذلك، أضحى التساؤل اليوم عن تلك البنيات التي تقع خلف المفاهيم وتحركها، وتعمل على استحضار كمونها المعرفي المركوز فيها، فتبقى بذلك مشدوهة نحو أصلها الذي أوجدها أول مرة. من هنا يمكن الذهاب إلى الاعتقاد أن حالة ضبط المفهوم هي التي تسعفنا في الوقوف على خلفيات الخطاب النقدي الذي بين أيدينا، وحالة ضبط المفهوم هذه هي ما نقصده بالمفهومية؛ أي استحضار

كل الأشكال الإبستيمولوجية والتأويلية للمفهوم وسلالته وتطوره التاريخي، وحالات الاشتقاق التي حصلت له بفعل تداوليات سياقية/نسقية حصلت له على مدار تشكله.

خاتمة :

في خاتمة هذا البحث، يمكن أن نستخلص جملة من النتائج أهمها :

لقد تبين أن العقل الغربي – منذ لحظة الكوجيطو– عقل نقدي بامتياز، بمعنى أنه خلص الملكات الإنسانية المختلفة من استحواذ الهالة الميتافيزيقية على جهازه الإدراكي، ومنعها من التصرف في عمليات فهم الوجود وإنتاج المعرفة؛ إنها في نظره عمليات قلصت مساحة الإنساني لصالح خطابات الميتا – إنسانية، بل وأعطت لهذه الأخيرة بما لايدع مجالا للشك حق التصرف السلطوي / المؤسساتي في هاجس الإبداع لديه، وفي رغبته في الانوجاد السيادي على مسرح الكون.

إن النظام النسقي الحداثي الذي حرر الإنسان – تحت تأثير برنامج موجه – من ميكانيكا الأشكال العقلانية / التجريبية قد أعاد زجه من جديد في ميتافيزيقا أخرى؛ إنها ميتافيزيقا التفكيك، بل وفتح أمامه الباب واسعا نحو وجودية جديدة ليست بالمفهوم السارتري، إنها وجودية بنسخة لم تنته بعد ، حيث لازالت في رحلة البحث عن أشكال أخرى للعب اللغوي/ النصاني مع الثقافة والإنسان والمجتمع، ومع حالات ما بعد الإنسان الأخرى التي يبدو إنها صارت متسارعة أكثر نحو عصر النهايات.

لا يمكن – في الحقيقة –أن نغفل دور المنهج النقدي البنيوي في إضفائه لطابع العلمية على المقاربات النصانية الجديدة، إلا أن هذا المنهج قد أغفل روح النص لصالح التقطيعات اللغوية الشائكة بدعوى العلمية، لذلك، كان لابد من لحظة قطائعية / تأسيسية جديدة تعيد للنص الأدبي روحه على الأقل من منظور أنثروبولجي / ثقافي / رمزي، لا لشيء إلا لأن هذا الإنسان / المبدع كائن رمزي بامتياز.

تجدر الإشارة هاهنا إلى أن التحول الخطير في النظرية النقدية المعاصرة من السياق إلى النسق ، ومن النسق إلى ما بعد النسق مرة أخرى، كان محمولا على أنظمة البراديغم المعرفية. يمكن أن نفهم هذه التحولات فهما أركيولوجيا دقيقا إذا عالجناها وفق آليات اشتغال هذا المفهوم، وخصائصه، وتحولاته.

هوامش:

01- ميشال فوكو: الاهتمام بالذات (جمالية الوجود وجرأة قول الحقيقة)، تق وتر: محمد ازويتة، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، د ط ، 2015 ، ص ص/63.62.

02- المرجع نفسه، ص64.

03- توماس كون: بنية الثورات العلمية ، تر: شوقي جلال ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، د.ط ديسمبر 1992. ص 223.

04- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

05- محمد سبيلا: الحداثة و ما بعد الحداثة ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، ط2 ، 2007 ، ص61.

06- المرجع نفسه، ص62.

07- ادوارد سابير:(ضمن: ادوارد سابير (وآخرون)): اللغة والخطاب الأدبي، اخ وتر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 993 ،ص 12.

08- المرجع نفسه، ص15.

09- محمد بكاي: أرخبيلات مابعد الحداثة (رهانات الذات الإنسانية: من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق)، دار الرافدين، بيروت/ الحمرا،ط1،2017، ص08.

10- المرجع نفسه، ص15.

11- حمد مفتاح: المفاهيم معالم (نحو تأويل واقعي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط2،2010،ص 06.

12- فريد لمريني: الفلسفة والنقد (مراصد إبستيمولوجية)،دار التنوير ،تونس،ط1،2016،ص19.

13- المرجع نفسه، ص27.

قائمة المراجع:

01- ميشال فوكو: الاهتمام بالذات (جمالية الوجود وجرأة قول الحقيقة)، تق وتر: محمد ازويتة، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، د ط ، 2015.

02- توماس كون: بنية الثورات العلمية، تر: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، د.ط ديسمبر 1992.

03- محمد سبيلا: الحداثة و ما بعد الحداثة ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، ط2 ، 2007 .

04 - ادوارد سابير: (ضمن : ادوارد سابير (وآخرون)): اللغة والخطاب الأدبي، اخ وتر:سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ط1 ، 1993.

05- محمد بكاي: أرخبيلات مابعد الحداثة (رهانات الذات الإنسانية: من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق)، دار الرافدين، بيروت/ الحمرا،ط1،2017.

06- محمد مفتاح: المفاهيم معالم (نحو تأويل واقعي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2،2010.

07- فريد لمريني: الفلسفة والنقد (مراصد إبستيمولوجية)، دار التنوير،تونس،ط1،2016.